منتدى مجال

سياسي - اجتماعي - استشاري

الزيدية في اليمن..

تسامح مع المذاهب..

وفكر متجدد لبناء الدولة المدنية

منتدى مجال
سياسي - اجتماعي - استشاري

الزيدية في اليمن..

تسامح مع المذاهب..

وفكر متجدد لبناء الدولة المدنية

ورقة مقدمة من منتدى مجال
1443هـ - 2021م
نوفمـــبر

نشأة الزيدية

يَعتَبِر معظم المؤرخين الطائفة الزيدية أقرب الطوائف الشيعية إلى مذاهب أهل السنة والجماعة، ويستند هذا الرأي إلى ابتعاد الزيدية عمّا يمكن اعتباره غلوًا في العقيدة الاثنا عشرية والعقائد الشيعية الأخرى، وهي تختلف فكرياً عن تلك الفرق في مبدأ الخروج على الظالم، الذي يمثل أهم وأبرز قاعدة يقوم عليها المذهب الزيدي، ففي حين تبنت الزيدية الإمامة السياسية وجعلت من «الخروج على الظالم» مبدًأ أساسياً لآرائها، تبنت الأثناء عشرية مبدأ السياسة الروحية واتخذت من «التّقية» مبدأً أساسياً لمعتقداتها، في حين تبنّت الإسماعيلية مبدأ الإمامة الباطنية القائمة على القول «لكل ظاهر باطن»؛ هادفة بذلك إلى إخفاء مقاصدها. ومن ثم كانت الزيدية أكثر علانية وصراحة، بينما كانت الاثنا عشرية أكثر توجساً وارتياباً في المخالفين، كما كانت الإسماعيلية أكثرها غموضاً والتواء [1].

تنتسب الزيدية، إلى الإمام زيد بن الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن الإمام علي بن أبي طالب عليهم السلام، (122هـ- 739م)، ويعتقد الزيديون أن نسبتهم إلى الإمام زيد ما هي إلا نسبة اعتزاز وافتخار لا نسبة تقليد كُلّي كما هو الحال لدى المذاهب الأخرى، ذلك إن الزيدية تُحرِّم التقليد على كل عالم مجتهد، علاوة على أن هذه النسبة لم يطلقها الإمام زيد على نفسه، ولا أطلقها أتباعه من بعده أيضاً على أنفسهم، بل أطلقها الحكام الأمويون على كل ثائر علوي عليهم من آل البيت؛ ليصبح شعاراً رسميًا للفريق القائل بحتمية الخروج على الحاكم الظالم من وجهة نظرهم.

ويرى الزيديون أنهم أتباع أهل البيت، وإنما أضافوا مذهبهم على وجه الخصوص إلى الإمام زيد بن علي باعتباره العلم المميز لها؛ ومن المعالم الأساسية في المذهب الزيدي: أنه يحرم التقليد على كل مجتهد قادر على الوقوف على الأدلة واستنباط الأحكام من الكتاب والسنة؛ ولذلك تميز بمدارسه الفقهية المتعددة، واجتهاداته المتجددة، وقد ظهر المذهب الزيدي منتصف القرن الثاني الهجري معتمدًا في نشأته على فقه الاعتزال، مع ميلٍ في الفروع للمذهب الحنفي.

وعليه، فهذه التسمية قد أقرها الزيديون على أنفسهم واعتزوا بها، كما أن مفهوم كلمة «الزيدية» قد أطلقت على العديد من أئمة آل البيت، ومن تابعهم أو وافقهم في الاعتقاد، وأبرز هذه المعتقدات إجمالاً:

- عدل الله المطلق.
- توحيد الله في ذاته وصفاته دون تجسيم أو تشبيه أو تعطيل.
- أفضلية الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) وأولويته بالإمامة.
- القول بإمامة الإمام زيد بن علي.
- استحقاق الإمامة بالفضل والطلب لا بالوراثة أو القوة.
- وجوب الخروج على الحاكم الظالم في حال توفر الشروط اللازمة لذلك، المقررة في كتبهم.
- القول بجواز إمامة المفضول مع وجود الأفضل منه[2].

أمّا ما عداها من الأمور فكلٌ وما أدّى إليه نظره، ويمثل إجماع أئمة آل البيت بالنسبة للزيدية المصدر الثالث من مصادر التشريع الإسلامي، من بعد الكتاب، والصحيح من السنة النبوية [3].

وتحتل مسألة الإمامة الجانب الأكبر في ثنايا الكتب والمؤلفات الزيدية، حيث تشكل فارقاً جوهريًّا بينهم ومختلف الفرق الشيعية والسنية على السواء.

وقد شكّلت الزيدية نقطة التقاء بين فرق السنة والشيعة، بما تمثله من آراء وأفكار عقدية، واجتهادات وأقوال فقهية، غلب عليها سمة الاعتدال جراء انفتاحها على مختلف المذاهب، ومقتها للانغلاق والتعصب [4]. فهي لم تغالِ في مظاهر تشيعها للإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وآل البيت عليهم السلام بصفة عامة، مع إقرارها بفضلهم وأولويتهم، كما لم تخض بالنقد الهادم والمسرف في أمر الخلافات الحاصلة على عهد الخلفاء الراشدين بشكل عام [5].

من جانب آخر، فقد قالت الزيدية في المسائل العقدية بمقالة العدليين من علماء الكلام، واتفقت بذلك مع العديد من المذاهب الإسلامية السنية والشيعية، كما أنها نهجت في بحثها الفقهي، واستنباطها التشريعي، مناهج مختلف الفرق الإسلامية من الاعتماد في المقام الأول على روايات آل البيت المروية بطرقهم الخاصة من جهة، وعلى روايات أصحاب المصنفات المشهورة في الحديث، كالبخاري،

ومسلم، والترمذي، وغيرهم، من جهة أخرى [6].

وكان من جراء ذلك أن تباينت الآراء حول تحديد هوية المذهب الزيدي إجمالاً، ليصنفه البعض على أنه أقرب فرق الشيعة إلى السنة، في حين رأى البعض الآخر أنه مذهب سني بملامح شيعية؛ معللين ذلك بعدم وجود أي غضاضة عند علمائه في عرض دليل غيرهم دون النظر إلى مدى تطابقه مع اجتهادهم، عوضاً عن القبول به وموافقتهم إياه في آليات الاستنباط وإجراء الحكم، وهو ما جعلهم وفقاً لذلك روّاداً لما يعرف بالفقه المقارن منذ أبكر الفترات التاريخية [7].

وفي السياق ذاته فقد آمنت الزيدية بحرية إرادة الإنسان في جميع أعماله وأفعاله إن خيراً فخير، وإن شرًّا فشر، نافين ما حاولت السلطة الجبرية إذاعته بين الناس، بهدف التأكيد على أن وصولها إلى الحكم كان «بقضاء الله وقدره، نافذ فعله، ولا حيلة للناس في دفعه» [8].

وهو ما يعزز من روح الحرية الفكرية التي ترفض إشاعة ثقافة المقدس في أذهان المجتمع بشكل مطلق، على اعتبار أن ذلك من أبجديات الحكومات الظالمة التي تعمل على تسويغ مبرراتها الشرعية بحسب وجهة نظر فقهاء السياسة الزيديين [9].

ولهذا فإن الزيدية ترى أنه لا قداسة لأحد على أحد، ولا لمفهوم على مفهوم، حتى لو كان صاحبه من آل البيت، ولا أحقية لأسرة على غيرها، فلا توارث للمرجعيات الدينية والسياسية، كما أن الزيدية تنكر مسألة «العِصمة القطعية» التي تفيد المنع لأئمتها، والعلم اللّدني لأي إنسان كائناً من كان، مخالفين بذلك الشيعة الإمامية (اثنا عشرية وإسماعيلية) الذين كرّسوا مفهوم القداسة لأئمتهم المعصومين، ومعارضين كذلك لبعض مظاهر التصوف السني الذين حصروا تلك القداسة في الولي العارف بالله.

جاعلين العصمة المعنوية التي هي بمعنى اللطف وليس المنع من وجهة نظرهم، قاصرة على الخمسة أهل الكساء، وهم: (النبي صلى الله عليه وآله، وفاطمة، وعلي، والحسن، والحسين) عليهم السلام طبقاً لخصوصية قوله تعالى: {إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا} [10].

وإمام الزيدية وعلمها الأول- كما أشرنا سابقاً- هو الإمام زيد بن علي بن

الحسين بن علي بن أبي طالب «عليهم السلام»، ولد في «المدينة المنورة» سنة 75 هـ، وأمه «أم ولد» اسمها جيدا، رُوي أن المختار اشتراها وأهداها إلى علي بن الحسين، وقيل إن علي بن الحسين هو الذي اشتراها [11].

نشأ وتربى في ظل أسرة كريمة، فأبوه علي بن الحسين الملقب بـ «زين العابدين»؛ لكثرة عبادته وزهده، وقد تخرج على يده وعلى يد أخيه الأكبر محمد بن علي الملقب بـ «الباقر»، لتعمقه بالعلم وتوسعه، وكذا أبناء عمه كلهم علماء فضلاء أجلاء، عاش مع القرآن الكريم 13 سنة حتى سميَّ بـ»حليف القرآن»، كما اتصل بعلماء عصره وأخذ عنهم علوم الدين. كـ «واصل ابن عطاء» و«أبي حنيفة النعمان» الذي قال عنه: شاهدت «زيد بن علي» كما شاهدت أهله، فما رأيت في زمانه أفقَه منه ولا أسرع جواباً ولا أبيَن قولًا.

خرج على «هشام ابن عبد الملك» سنة 122هـ؛ لجوره وفجوره، غير أن من بايعوه ما لبثوا أن تخلوا عنه وخذلوه حتى قال عنهم: ما أراهم إلا قد جعلوها حسينية، فاضطر لمقابلة جيش الأمويين بمن معه من الأنصار؛ حتى أصيب بسهم في جبهته أدّى إلى استشهاده في شهر محرم عام 122هـ، وقد مثل هذا الخروج المبدأ الأساسي لعقيدة الزيدية، حيث تتابع خروج الأئمة من بعده ضد أئمة الظلم والجور، فخرج ولده «يحيي بن زيد» سنة 126هـ، و»محمد بن عبد الله بن الحسن» المعروف بـ «النفس الزكية» في المدينة، وفيها استشهد سنة 149هـ، وأخوه إبراهيم في البصرة، التي استشهد فيها على يد أبو جعفر المنصور. كما خرج في مكة «الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن» الملقب بـ «الفخي» سنة 169هـ [12].

وعقب هذه المذبحة الرهيبة بحق آل البيت في «فخ»، لقي معظمهم حتفهم فيها تشتتوا في مناطق كثيرة، فوصل إلى المغرب «إدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب» وأسس الدولة الإدريسية في المغرب، وابتعد الكثير منهم عن عيون الناس؛ خوفاً من الملاحقة وبطش العباسيين مع وجود قلة الناصر في الحجاز، ومصر، والكوفة، والبصرة في العراق، وخرج البعض منهم إلى بلاد «الجيل والديلم»، حيث وصلها الإمام الناصر الملقب بـ «الأطروش» وأسس فيها الدولة الزيدية.

وفي اليمن وصلت الدعوة الزيدية أواخر القرن الثالث الهجري، على يد «الإمام

يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي»، الذي استقر في صعدة وأسس الدولة الزيدية في بلاد اليمن، بعد أن أخذ البيعة على إقامة الكتاب والسنة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والطاعة في المعروف، وقد بدأ عهده بحروب عديدة مع «القرامطة» الباطنية؛ ليبدأ حركته الإصلاحية بلمّ الشمل والقضاء على الفُرقة والاختلاف، وحكم من بعده أولاده معظم أنحاء اليمن وبعض أجزاء «الحجاز»، واستمر حكم اليمن بيد أولاد الهادي وذريته حتى قيام الثورة اليمنية سنة 1382هـ (1962م)، وهي أطول فترة حكم في التاريخ لآل البيت حيث دامت أحد عشر قرناً.

الزيدية.. معالم فكرية رائدة

يمثل الفكر الزيدي بمعالمه ومميزاته مصدر إثراء ودراسة لكثير من الباحثين والمهتمين في المذاهب والفرق الإسلامية، والفكر الزيدي ليس مذهباً فقهياً أو فرقة كلامية، بل منهج شامل للتجديد والإبداع في إطار الفكر الإسلامي الشامل، لم يتقيد بقيود الموروثات والمسلمات ولم يخضع لقساوة الأحوال وشدة الظروف، رغم ما تعرض له هذا الفكر من اضطهاد طيلة القرون الماضية؛ لأنه في ذاته فكر ثائر على الأحوال والظروف التي فرضها حكام الجور والتسلط، وهو بحد ذاته ثورة على الموروثات الفكرية الدخيلة على الدين التي تعمل على تثبيط المجتمع وتجعله أسيراً لقناعات فكرية ونظريات مشوهة مهما كانت ممهورة وممزوجة بشعارات الأسوة والقدوة.

ويتمحور الفكر الزيدي في ثلاثة محاور أساسية

الأول: النّظر وإطلاقه بالبحث والتفكير عن حقائق الكون وفق منهجية القرآن الكريم، وفي حدود صلاحية العقل، وهذا ما يعرف عند الزيدية بوجوب النظر وحرمة التقليد في الأصول.

الثاني: فتح أبواب الاجتهاد في المسائل العلمية بالنظر في مصادر التشريع ومقاصد الشريعة، ما معناه فتح أبواب الاجتهاد المشهور عند الزيدية.

الثالث: تقويم الحكم المستبد بدأً بالنصح والنقد وصولاً إلى التمرد والمواجهة، وهذا ما يعرف بمبدأ «الخروج على الظالم» [13].

وهذه الأصول ليست بأصول جامدة، بل تتواكب مع كل عصر وزمن، وهذا ما جعل كثيراً من الباحثين يتحيرون في تحديد معالم الفكر الزيدي، هل هو منهج كلامي أم مذهب فقهي، أم تيار اجتماعي، أم نظام سياسي؟ وجعل المذاهب والطوائف الإسلامية المختلفة سنية كانت أم شيعية، تدعي القرب إلى الزيدية والانسجام معها، بل جعل البعض يشكك في استقلالية الفكر الزيدي فيصنفه في مجال العقائد على المعتزلة، وفي الفقه على الحنفية، وفي التشيع على الإمامية، رغم اختلافه في كثير من المسائل مع كل جهة من الجهات التي صنف عليها.

وقد أنتج ميدان هذا الفكر سلسلة طويلة من الأعلام المجتهدين الذين كان لهم رؤى مختلفة عن الموروث السائد سواء في المسائل الفكرية أو الفقهية، الأمر الذي حمل البعض من الكتاب إلى تصنيفهم كمذاهب جديدة ومختلفة لا علاقة لها بالفكر الزيدي، كالجارودية والصالحية والقاسمية والهادوية والناصرية والمطرفية.. إلخ، أو يصنفهم على مذاهب أخرى.

كما صُنف الإمام المهدي «أحمد بن يحيي المرتضى» على المعتزلة، والعلامة «أبو العباس الحسني» على الإمامية، كما صُنف الإمام «يحيى بن حمزة» والحافظ «محمد بن إبراهيم الوزير» والعلامة «صالح بن مهدي المقبلي» والعلامة «الحسن بن أحمد الجلال» والعلامة «محمد ابن إسماعيل الوزير «على السنية، وغيرهم كثير[14].

غير أن هؤلاء هم أئمة علم أنتجهم الفكر الزيدي المتحرر لما منحهم هذا الفكر من حرية البحث والتفكير وشجعهم على النظر والاجتهاد، وأعطاهم حق التعبير عما توصلوا إليه من اجتهادات، فلا يصح تصنيفهم ومن كان على شاكلتهم كأتباع لمذاهب أخرى، لأن ما توصلوا إليه من أنظار موافقة أو مخالفة لهذا أو ذاك كانت نتيجة لاجتهاد وبحث لا تقليد، فالفكر الزيدي أكبر وأشمل من أن يحتكر من قبل جماعة أو يُختزل في جملة من الأفكار والرؤى، فهو فكر يستوعب كل مفكر وباحث عن الحقيقة مهما كانت النتائج التي توصل إليها، لأنه فكر يسعى لتحرير الإنسان من قيود التبعية ليتذوق معنى العبودية لله وحده وهذا هو شعار الإسلام وجوهر الدين.

وفي توصيف موجز لمعالم الفكر الزيدي، يقول العلامة «عبد الرحمن المجاهد

الشماحي» وهو من أعلم الناس به، فقد عاشه حياة وفكراً: «إنه مذهب واقع وحقائق لا خيالات وأوهام، ولا تصورات شاطحة وأحلام، ولا مذهب ألغاز ومعميات، ولا مذهب كرامات أولياء، ومعجزات وعصمة أئمة، ولا مذهب واسطة بين العبد وربه إلا عمل العبد وإيمانه. إنه مذهب عبادات إلى جانب معاملات بلغت قوانينها من الدقة الفقهية والتشريعية ما لم تبلغه أدق القوانين المعاصرة شمولاً وقبولاً للتطور وتَقَبُّل كل جديد صالح، إنه مذهب دين ودنيا، وإيمان وعمل، وجد ونشاط، وعدل وإيثار، وجهاد واجتهاد، فيه الإنسان مخيرّ لا مسيرّ، مذهب يدعو إلى التحرر الفكري وإلى التعمق في العلوم النافعة ويحرم التقليد في العقائد والقواعد العلمية الدينية، ويوجب الاجتهاد على ضوء القرآن والسنة في العبادات والمعاملات، ويدعو إلى القوة والتضحية، ويفرض الطاعة والنظام والتعاون، كما يفرض الخروج على أئمة الجور والثورة على الظلم الاجتماعي والطغيان الفردي، ولا يرضى لأتباعه بالمذلة والكسل، ولا بالخضوع والاستسلام لغير اللّه وما شرعه، مذهب يحترم السلف في حدود أنهم من البشر عرضة للنقد بما فيهم الصحابة وأبناء فاطمة، فأفراد الفاطميين كالصحابة فمنهم -كغيرهم- محسن وظالم لنفسه مبين»[15].

هذا التوصيف القيم للفكر الزيدي على لسان أحد فقهاء اليمن ومؤرخيها المتمكنين، ينم عن قراءة عميقة من صاحبه لمعالم هذا الفكر واستيعاب مقاصده وأهدافه، لذلك كان وصفاً دقيقاً ومركزاً، وشاملاً لكل ما يمكن أن يمثل نظاماً للحياة البشرية، كالعدل والمساواة، والحث على العمل والنشاط، وطلب التجديد والاجتهاد، ورفض الاستبداد والظلم. كل هذه الأمور وغيرها مما تبنى عليه الأنظمة الحكيمة كانت محل اهتمام الفكر الزيدي[16]. كما ركز العلامة الشماحي في كلامه على استثناء أو نفي كل ما من شأنه أن يقف عائقاً أمام تقدم البشرية من وجهة نظر الزيدية، كنفي التقديس والخرافات والأوهام الخيالية وما شابهها من قضايا تزيد من حيرة الإنسان وعدم استقراره العقلي والثقافي، كما في بعض الاتجاهات والمذاهب الأخرى، كل ذلك لم يكن موجوداً في أصول الفكر الزيدي، ولم يضطر هذا الفكر للجوء إلى مثل هذه التداعيات المفرطة لسد فراغ معين وقع فيه، بل كان ثابتاً على نفس القاعدة التي استمدت مساراتها من القرآن والسنة،

دون أن تهتز له صورة في زمن معين، أو فترة بعينها، أو يصاب بجمود من أي نوع، فالثبات الفكري ساهم في تجدد الفكر الزيدي عبر العصور [17].

أما العلامة المجتهد «محمد بن إسماعيل العمراني» أحد علماء اليمن المعاصرين، فيصف المذهب الزيدي وصفاً قيماً، حيث قال في كتابه «الزيدية باليمن»: (وهم لا يتعصبون على غيرهم ممن يخالفهم في الفقه الإسلامي من إخوانهم المسلمين، ممن يتعبد بأي مذهب إسلامي، إذا كان خلافه في المسائل الفقهية اللاتي لا يخل فيها بجوهر الدين أي إخلال، وكتبهم الأصولية والفروعية دالة أكبر دلالة على براءتهم من التعصب المذهبي، وعلى إحسانهم الظن بكل من يخالفهم خلافاً فقهياً ما دام لا يمس الدين، ولا يخل بأصل من أصول الإسلام الكبرى).

وهناك بعضاً من قواعدهم الأصولية والفروعية المنصوص عليها في أكبر مؤلفاتهم وأشهرها، مثل قولهم:

- الاجتهاد جائز لمن حقق علوم الاجتهاد الخمسة المذكورة في علم الأصول.
- ولا إنكار في حكم مختلف فيه.
- لا يكون التكفير والتفسيق إلا بدليل قاطع.
- الجاهل الصرف الذي لا يعرف عن المذاهب شيئاً مذهبه مذهب من وافق.

وغير ذلك من القواعد الكلية الكبرى الدالة على ما ذكرته آنفاً من أنهم على قدر كبير من التسامح المذهبي [18].

ويقول العلامة العمراني، في موضع آخر بعد أن عدد بعض أئمة وعلماء الزيدية وذكر مؤلفاتهم: (فلله دره من مذهب أنجب أمثال هؤلاء العلماء في عصور ساد فيها التقليد والجمود، وعزّ فيها التحرر الفكري، وسُدّ باب الاجتهاد) [19].

ولذلك نجد (أن العلامة العمراني لم يكن ليلقي الكلام على عواهنه، لو لم يدرك عظمة هذا الفكر، واستحقاقه لهذا الوصف والوقوف للدفاع عنه، كما لم يمنعه ذلك من أن يخالف بعض قواعد الفكر الزيدي في بعض المسائل العلمية، حسب ما توصل إليه نظره واستقر عليه اجتهاده، ذلك لأنه انطلق من خلال ما منحه الفكر الزيدي من حرية فكرية، ومكنه من ممارسة حقه في النظر والاجتهاد والترجيح، دون أن يتعرض إلى أي نوع من أنواع الاتهام من رموز وعلماء الفكر الزيدي) [20].

إن الاستقراء التام والعميق للفكر الزيدي يصل بصاحبه إلى نتيجة هامّة تقوم على أساس النهوض بالإنسان إلى أعلى درجات الرقي، فالفكر الزيدي يسعى إلى بناء الدولة المدنية الحديثة، القائمة على العدل والمساواة، وضمان الحريات الفردية والجماعية في الإطار العام للإسلام، لذلك فلا يمكن أن يتولد القلق والخوف عند أي نظام تجاه الفكر الزيدي إلا إذا كان نظاماً استبدادياً.

نظرية الخروج..مصدر إلهام للشعوب المقهورة

مثلت الزيدية مصدر التقاء للفرق الإسلامية في كثير من النظريات الفكرية والقواعد الفقهية- كما أشرنا سابقاً- في انسجام الرؤية الزيدية مع المعتزلة في العقائد، ومع الحنفية في الفقه، ومع الإمامية في التشيع؛ إلا أنها تفردت بمبدأ «الخروج على الظالم» مع كل الفرق والطوائف الإسلامية، حيث يعتبر هذ المبدأ هو القاعدة الأساسية في الفكر الزيدي؛ لأن العدل من وجهة نظر الزيدية هو أساس كل شيء وبدونه لا تستقيم الحياة ولا يقوم عمران، فكيف يحصل العدل وتستقيم الحياة مع الحكام الجائرين؟

هذه المنهجية في الفكر الزيدي، تحرم العيش تحت وطأة الطغاة والمستبدين وترى الركون إليهم استسلاماً ينكره الدين وقيمه الإسلامية التي رفعت من شأن الإنسان باعتباره خليفة الله في أرضه ويجب أن يقوم بمقتضى هذا الاستخلاف.

وفي العصر الحديث ومع ارتفاع حدة التسلط والاستبداد بالشعوب وخاصة العربية والإسلامية من قبل حكامها الذين أفرطوا في قهر شعوبهم من خلال أنظمتهم الديكتاتورية وأجهزتهم القمعية والرعاية الغربية لهؤلاء الحكام، يقابله زيادة مستوى الوعي الشعبي وارتفاع الدعوات المطالبة بالحقوق ورفض الظلم والطغيان، تبلورت فكرة إسقاط الأنظمة الجائرة وتمكين الشعوب من حقوقها في العيش بحرية وإنصاف بعيداً عن جور التسلط والاستبداد، وكانت البدايات الأولى لموجة الثورات الحديثة في العالم الإسلامي في إيران.

الخميني ونظرية الخروج على الظالم

منذ ستينيات القرن الماضي، كان الخميني يتابع ما يتعرض له الشعب الإيراني من اضطهاد وقمع من قبل نظام الشاه «محمد رضا بهلوي»، وأمام غطرسة هذا النظام الجائر وسكون المراجع الدينية وجد الإمام الخميني نفسه مسؤولاً عن ملايين من الشعب الإيراني الذين استبيحت كرامتهم ونالهم من الظلم ما يوجب عليه التحرك لقيادة الجماهير وإسقاط نظام الشاه.

صحيح أن الخميني وجد موقفاً سلبياً وخافتاً من قبل المرجعية الدينية الملتزمة بالنظرية الامامية الاثنا عشرية، والقائمة على الأخذ بمبدأ «التّقية» والتزام المقاومة الروحية، وفي الوقت الذي ارتفع مستوى القمع والظلم تجاه الشعب الإيراني وامتلأت شوارع المدن الإيرانية بجثث الإيرانيين على أيدي أجهزة نظام الشاه، فتحرك باعتباره أحد علماء الحوزة العلمية.

أدرك الخميني عظمة المسؤولية على العلماء، فقرر التحرك وقيادة جماهير الشعب الإيراني للخروج على الشاه وإسقاط نظامه، ومن خلال تحرك الخميني ودعوته للجماهير لإسقاط النظام الظالم وتبنيه قيادة الثورة وتحمله تبعاتها، نجده قد تجاوز أصول ومبادئ الاثنا عشرية، وأخذ بالنظرية الزيدية التي توجب «الخروج على الحاكم الظالم» الذي يستمد شرعيته من القهر والغلبة.

الإمام الخميني لم يعلن صراحةً الانقلاب على النظرية الإمامية، لكن تحركه ودعوته للجماهير وقيادته لها في مواجهة نظام الشاه، الذي نجحت الجماهير في إسقاطه، قد تجاوز نظرية مذهبه التي تقوم على مبدأ «التّقية» والمقاومة الروحية، إلى النظرية الزيدية التي ترى حتمية الخروج، حيث أدرك الخميني أن لا سبيل أمام الإيرانيين سوى إسقاط نظام الشاه وإقامة نظام جمهوري إسلامي يتمتع من خلاله الشعب الإيراني بكامل حقوقه التي كفلها الإسلام.

ومن المعلوم أن الخميني لقي معارضة شديدة من جانب الكثير من العلماء والمرجعيات الدينية، الذين وجدوه تجاوز أصول المذهب الاثنا عشري، لكنه لم يلتفت لدعواتها، وآمن بقدرة الجماهير على التغيير وإسقاط نظام الشاه الجائر، وكان يردد ويقول: «بعظمة الإسلام»، ويقول في نفس الوقت «إن الإسلام أعظم وأسمى مما نتصور» [21].

لقد نظر بشمولية الإسلام، وبذلك كان نجاح الثورة الإسلامية في إيران مرهون بتجاوز النظرية الاثنا عشرية إلى نظرية إسلامية أخرى أكثر صراحة تبيح إسقاط نظام الشاه الجائر، وكان له ما أراد من خلال النظرية الفكرية الزيدية التي تحرم الخضوع للسلطان الجائر وتوجب الخروج عليه، وهو ما قام به الخميني.

الفكر الزيدي والربيع العربي:

في مطلع العام 2011 شهدت عدد من الدول العربية خروج الجماهير إلى الشوارع والساحات، تطالب بإسقاط الأنظمة الحاكمة فيها، وقد شملت تلك الدول «تونس، مصر، اليمن، ليبيا، البحرين، سوريا»، وبغض النظر عن تلك الأحداث وشرعيتها، والدور الخارجي الذي لا يُخفى في تأجيجها، إلا أننا بقصد النظر في الدعوات إليها من قِبل العلماء والمفكرين والمنظرين لها، وما الذي دفع بهم إلى دعوة الجماهير للثورة وإسقاط تلك الأنظمة باعتبارها مستبدة وفاقدة للشرعية وهم الذين ينكرون شرعية الخروج على السلطان الجائر مالم يظهر الكفر البواح؟!

وكيف تخلى حملة المنهجية الفكرية القائمة على الركون والصبر وإطاعة حكام الجور عن مبدأ أطع الأمير...؟ لقد كان ذلك المنحنى الجديد في الخطاب والأداء انقلاباً وثورة على الموروث الفكري والعقائدي السُّني، فمن خلال تلك الدعوات التي أطلقها كبار علماء السنة ومفكريهم وفي مقدمتهم اتحاد علماء المسلمين الذي لم يكتفِ بالدعوة للثورة في تلك البلدان، بل تبنى دعمها وأشرف عليها رسمياً من خلال البيانات والفتاوى التي كانت تدعو الجماهير إلى وجوب الثورة.

ففي الوقت الذي كانوا يحرمون الخروج على الحاكم وينظرون أنما يقوم به من ظلم ينبغي السكوت عنه؛ للحفاظ على وحدة الأمة وعدم شق عصا الطاعة وتفريق الجماعة، باتوا يدعون للخروج على هؤلاء الحكام ويرون ضرورة إسقاط حكمهم؛ في تناقض صريح مع الموروث الفكري الذي يؤمنون به وينتمون إليه؟!

ولنا أن نتساءل: ماذا حمل علماء السنة ومفكريهم في الوقت الراهن على الثورة، وممارسة الفعل الثوري في الواقع؟ هل كان ذلك نتاج لفشل النظرية الفكرية السنية في التخلص ممن اعتبروهم حكام ظلم وجور؟ أم كان ذلك بداية لمرحلة

جديدة من المراجعة والنقد للفكر الموروث؟

ومما لا شك فيه أن التزام الموروث الفكري السني القائم على إطاعة ولي الأمر ما لم يظهر كفراً بواحاً؛ قد جعل تلك الجماهير وفي المقدمة علمائهم ومفكريهم عرضة للظلم والطغيان الذي فتك بهم لعقود طويلة، وكان لابد من تجاوز عتباته المكبلة للثورة، لنجاتهم من حالة الجور والظلم والطغيان، الذي استغله-في كثير من الأحيان-حكامهم لمضاعفة الجور بهم وبجماهير الأمة، عبر التحكم بمصيرها ومصادرة ثرواتها. فكانت الدعوات ضد أولئك الحكام والتحريض على مواجهتهم وإسقاطهم أولى معالم التصحيح الفكري في المنهجية والموروث الفكري السني.

الزيدية في وجه العاصفة:

منحت السعودية الرعاية للنظام الحاكم في صنعاء والقوى المؤثرة فيه، لا ليبني بلداً مستقراً لشعب طالما أوغلت في دمائه عشرات السنين، وإنما لتنفيذ الأجندة السعودية في اليمن وضمان تبعيته السياسية والاقتصادية والفكرية، وهو ما تجلى في علاقة البلدين طيلة العقود السابقة. انصب اهتمام السعودية في اليمن ليظل بلداً فقيراً تابعاً لها، وقد التزم نظام صنعاء تنفيذ التوجهات السعودية في صفقة كان الاعتراف به 1970م، أولى شروطها.

كانت البدايات الأولى في تغيير هوية الشعب اليمني وخلفيته الفكرية والمذهبية باعتبارها أساس أصالته ومصدر إرادته وأهم عناصر القوة لديه، والسبيل الوحيد لإخضاعه وإذلاله. وقد نجحت السعودية-إلى حد كبير- في تلك المهمة من خلال المال الذي تدفق لحلفائها بالملايين في المؤسسات الرسمية والأهلية وغيرها من القوى التي كانت تستلم نصيبها بطرق مباشرة وغير مباشرة.

بدأ مسلسل تغيير الهوية اليمنية وتدمير المنهجية الزيدية من خلال بناء عشرات المعاهد العلمية، ومن خلال هذه المعاهد التي تم اختيار أماكنها بعناية، وجدت الزيدية وأتباعها أنهم المستهدفون، لاسيما مع تخرج الآلاف من هذه المعاهد الذين فُتح لهم باب الوظيفة العامة في التربية، والأوقاف، والعدل، وصولاً إلى وزارتي الداخلية والدفاع وغيرها من المؤسسات الحكومية، في الوقت الذي تم

التحفظ على حاملي الشهادات من الجامعات الرسمية، وخاصة إذا كان حملتها ينتمون إلى أسر ومناطق بعينها.

لم ينته مسلسل الحرب على الهوية اليمنية وتهميش القوى الرافضة للتوجه الوهابي الزاحف إلى اليمن، بل تم صقل المهارات العسكرية لخريجي تلك المعاهد من خلال إرسال الكثير منهم إلى «أفغانستان» بحجة مواجهة الشيوعية، وآخرين لمواجهة الخطر نفسه في المناطق الوسطى من اليمن.

وتستمر فصول المؤامرة السعودية على الهوية الوطنية للشعب اليمني وخلفيته الفكرية بدمج مجندي الخارج مع مجندي الداخل؛ ليكونوا أداةً لسلسلة من الحروب الداخلية التي تم التخطيط السعودي لها بعناية، فكانت الحرب على الجنوب التي جند فيها نظام «صالح» تلك العناصر ليكونوا أداته في التخلص من حلفائه في تحقيق الوحدة، في تباين وحيد لهم مع الرؤية السعودية التي كانت تسعى لعودة اليمن إلى حالة التقسيم.

وفي الوقت نفسه دفعت السعودية بـ «صالح» الذي خرج منتصراً من تلك الحرب، إلى ضرورة استيعاب حلفائه في الحرب كشركاء في الحكومة وأجهزة الدولة؛ لإكمال المسلسل والتحضير لمحاولة الإجهاز على ما تبقى من أتباع هذا الفكر، فكانت الحروب على صعدة فصلاً جديداً من مسلسل الحرب على الزيدية.

ورغم ستة حروبٍ متتالية على صعدة والمناطق المجاورة لها في عمران؛ فشلت تلك الحروب إضافة لسلسلة الحروب المتقطعة التي دُشنت في بعض مناطق حجة والجوف؛ لتنتهي بعدها رحلة «صالح» في السلطة على أيدي شركائه في تلك المسيرة الطويلة في الحروب، وبرعاية وتمويل كانت السعودية هي الراعي الرسمي لها، كما كانت الراعي والضامن لمغادرته السلطة رغم خدماته، والتجديد لحلفائه فيها، لتبدأ السعودية فصل جديد من المواجهة المباشرة مع اليمنيين بكل أطيافهم وتوجهاتهم الفكرية والسياسية، سيما التي تمسكت بهويتها اليمنية وأصالتها الزيدية، ورفضت الانحناء والانجرار نحو التبعية السعودية والهيمنة الأمريكية.

في الساعات الأولى لصباح الـ 26 من مارس 2015، أعلن العدوان السعودي الأمريكي جملة من الأهداف لحربه الظالمة على الشعب اليمني، لكنها لم تكن سوى حجج واهية كشفتها الأيام وكشفها تحالف العدوان نفسه من خلال وسائله

الإعلامية وخطواته على الأرض، وكان أكثرها وضوحاً عندما أعلنها صراحة خطيب الحرم المكي «عبد الرحمن السديس» من داخل الحرم المكي الشريف: بأن حرب التحالف على اليمن حربُ مذهبية؟!

وبعد ذلك تتابع الكثير من العلماء والدعاة من السعودية والإمارات وبقية الدول المنضوية في تحالف العدوان للترويج لهذه الحرب بأنها مذهبية وحربٌ على الروافض وانتصار للسنة، وذهب كثير منهم لدعوة الشباب المغرر بهم إلى التجنيد لهذه الحرب وفق هذا المبرر، وقد كشفت وسائل الإعلام التابعة للعدوان من داخل معسكرات التحالف كيف يتم الزج بالمرتزقة الذين تم جلبهم من السودان والسنغال والمغرب..إلخ في الحرب بموجب هذه الدعوة البغيضة.

وإلى جانب ذلك كشفت العمليات على الأرض استهداف المساجد والأضرحة والشواهد التاريخية، وكان أبلغها وضوحاً استهداف جامع الامام الهادي في صعدة[22]. ومسجد محدث اليمن «عبد الرزاق بن همام الصنعاني» وقبره في مديرية سنحان محافظة صنعاء.

وإلى جانب هذا الاستهداف المنهج، كانت الحرب بحد ذاتها استهداف للشعب اليمني الذي انتفض ثائراً على الهيمنة الأمريكية والتبعية للسعودية، فالشعب الذي خرج رافضاً للظلم والجور واكتوى بناره عقود من الزمن بدعم وتمويل سعودي، لن يستكين في مواجهة هذا الصلف السعودي الجديد، فقيمه الأصيلة وإرادته القوية ومبادئه الفكرية تحتم عليه المواجهة وتحرم عليه الاستكانة والخضوع والعيش تحت عباءة الظلم والجور.

إن الشعب اليمني الذي آمن بقيم الإسلام ومبادئه وتشرب العقيدة الإسلامية الصافية منذُ وصول الإمام علي بن أبي طالب «عليه السلام» مبعوثاً من خاتم الأنبياء والمرسلين «صلى الله عليه وآله وسلم»، لم ينصاع لولاة الظلم والجور الذين تم إرسالهم من قبل «معاوية بن أبي سفيان»، وقد تعززت تلك العقيدة الزيدية في نفوس اليمنيين منذ وصول الإمام الهادي إلى الحق «يحيى بن الحسين بن القاسم» أواخر القرن الثالث الهجري.

لقد امتزجت تلك العقيدة الدينية والقيم الإيمانية مع أعراف القبيلة اليمنية، فصنعت شعباً أبياً عنيداً لم ينكسر ولم يخضع لغازٍ أجنبي أو متسلطٍ داخلي، فقد

حـول جبالـه وسـهوله إلى مقابـر للغـزاة، حتـى اسـتحق لقـب مقـبرة الغـزاة، وأسـقط كل حاكـم تسـلط عليـه وأراد إخضاعـه بالظلـم والجـور، وتاريـخ اليمـن ملـئ بالشـواهد والوقائـع التاريخيـة.

ومـا يقـوم بـه التحالـف مـن قتـل وتدمـير ممنهـج، يكشـف بوضـوح أن هـذه الحـرب ليسـت لتنفيـذ أطماعـه عـلى الأرض والميـاه اليمنيـة فحسـب، بـل هـي اسـتمرار لحربـه المذهبيـة، التـي صرح بهـا قـادة العـدوان ومنظريـه، وجمـع لحربـه منـذ اليـوم الأول كل عنـاصر القـوة واسـتخدم كل أنـواع الأسـلحة التـي تـم تزويـده بهـا وشـاركت معـه في اسـتخدامها قـوى الاسـتكبار العالمـي طيلـة سـنوات العـدوان، وإلى جانـب ذلـك فشـلت كل الوسـائل السياسـية والاقتصاديـة والإعلاميـة القائمـة عـلى المكـر والخـداع والترويـج المضلـل التـي تـشرف عليهـا مراكـز أبحـاث دوليـة، وبقيـت عاجـزة وحائـرة أمـام عقيـدة اليمنيـين وإرادتهـم وصلابتهـم.

إن هـذا الصمـود الأسـطوري للشـعب اليمنـي تقـف خلفـه عوامـل عديـدة، يـأتي في مقدمتهـا عظمـة هـذا الشـعب وعدالـة قضيتـه وشـجاعته وصـبره وعزيمـة أبنائـه وحكمـة قيادتـه الثوريـة، وكل تلـك العوامـل نتـاج للعقيـدة الراسـخة والمبـادئ الفكريـة للفكـر والمذهـب الزيـدي التـي ترفـض الـذل والخنـوع والاستسـلام ويعتبرهـا تتنـافى مـع الإيمـان الخالـص للـه سـبحانه، حيـث يعتـبر الأمـر بالمعـروف والنهـي عـن المنكـر مـن الأصـول الخمسـة في العقيـدة الزيديـة ولا يكتمـل الإيمـان باللـه إلا بـه مهـما كانـت المخاطـر، وقـد مارسـه أئمـة الزيديـة في حياتهـم واستُشـهد الكثـير منهـم وتعرضـوا لأنـواع الاضطهـاد والتشريـد، وفي مقدمتهـم إمـام الزيديـة وعلمهـا الأول «زيـد بـن عـلي» الـذي وضـع بخروجـه عـلى الخليفـة الجائـر «هشـام بـن عبـد الملـك،» المبـدأ الأسـاسي للفكـر الزيـدي، ليصبـح خروجـه مبـدأ أسـاسي وأصـل مـن أصـول الزيديـة.

وقـد حـذّر السـيد عبـد الملـك بـدر الديـن الحـوثي، قـوى التحالـف في اليـوم الأول للعدوان، بـأن الشـعب اليمنـي لا يمكـن قهـره وإذلالـه؛ لأنـه شـعب لا يمكـن لعزيمتـه أن تضعـف أو تلـين فضـلاً عـن أن تنكـسر، ودعاهـم إلى تحكيـم العقـل واحـترام إرادة الشـعب اليمنـي وخياراتـه، وأن يراجعـوا تاريـخ اليمـن في مقاومتـه للغـزو والاحتـلال قبـل أن يتورطـوا في عدوانهـم عـلى الشـعب اليمنـي، بقولـه: «لـن نقبـل كشـعب يمنـي أن نقتـل، وأن يعمـل الآخـرون عـلى إماتتنـا جوعـاً وحصـاراً، وأن نجلـس في بيوتنـا مكتـوفي الأيـدي، خانعـين وأذلاء، هـذا غـير

وارد، في اليَمَن هذا غير وارد» [23]. ويبدو أن تحالف العدوان قد أدرك أن الإرادة اليمنية والقدرة على الصمود والمواجهة-رغم الإمكانيات الهائلة التي استخدمها والدعم الغربي اللامحدود- تقف خلفها عقيدة صلبة آمن بها اليمنيون منذ زمن بعيد.

وما يقوم به التحالف ليس سوى هروب إلى الأمام، فالشعب الذي تشرب المنهجية الفكرية الزيدية وعاش تاريخه ثائراً ورافضاً لكل أساليب القهر والظلم والتسلط، ولن ينكسر مهما كانت التضحيات التي تهون-مهما كان حجمها-عند أصحاب العقائد السليمة والإرادة الصلبة.

الزيدية في مشروع الشهيد القائد:

إن المتتبع لحديث السيد حسين بدر الدين الحوثي، عن الزيدية لا يكاد يخلوا من التوبيخ والتقريع، وذلك نتيجة لتقاعس الزيدية عن القيام بالمسؤولية التي تؤكدها المعتقدات القرآنية والفهم الصريح لها في العقيدة الزيدية، إلى جانب المبدأ الأساسي للزيدية المتمثل في: الخروج على الظالم، ووجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما ساهم المنتمين إليها في كبوتها، وكلها عوامل ساهمت في تقاعسها عن أداء المسؤولية المناطة بها.

ويؤكد السيد حسين أن الزيدية قدمت نموذجًا فريدًا في التعايش-أثناء حكم الأئمة الزيديون- قلّ أن تجد له نظير «يوم كان أئمة الزيدية هم الذين يحكمون اليمن كانوا لا يفرضون على المناطق الشافعية والسنيّة في اليمن مؤذناً، ولا خطيباً، ولا إمام جامع، ولا قاضياً، ولا مفتياً، كانوا يجعلون القاضي من الشافعية، مفتي للشافعية من الشافعية، حتى وإن كان زيدياً يفتي بمذهب الشافعي للشافعيين، يؤذن في بلدانهم بأذانهم، يصلون بصلاتهم، لا يتعرضون لهم» [24].

ويؤكد السيد حسين أن الزيدية تعرضت للكثير من التهميش والإقصاء من قبل النظام السابق، كما لا يخلوا حديثه من أسباب خفوت الصوت الزيدي والنموذج الزيدي في الساحة اليمنية والساحة الإسلامية، ويرى أن المسؤولية على الزيدية أكبر في كل الميادين، وأهمها الجهاد في سبيل الله ومواجهة الباطل والعقائد المنحرفة ومواجهة اليهود والنصارى وأرباب الاستكبار؛ لأن الزيدية أهلاً للقيام

بالمسؤولية بحكم انتمائها وسلامة عقائدها والنموذج التاريخي العظيم التي قدمه الأئمة الزيدية في مقارعة الباطل من خلال مبدأ الخروج على الظالم، ذلك المبدأ الوحيد الذي تفرّدت به الزيدية عن بقية الفرق الإسلامية.

ومن خلال مطالعتنا لحديث السيد حسين المدوّن في الملازم، نجد أنه هاجم الزيدية-وهو المنتمي إليها-أكثر من سواها؛ معتبراً أنها تعيش حالة من التّيه الذي يجب عليها مغادرته، وأن تتحمل المسؤولية في مواجهة أعداء الله، وفي مقدمتهم اليهود والأمريكيين، لأن تقاعسها عن المسؤولية أتاح الفرصة لليهود أن يتحركوا مع الفئات الضالة والمضلة في هذا العالم قائلاً: «فنحن عندما فرّطنا كعرب في هذا الشّرف العظيم، عندما فرطنا كعرب في هذه الرسالة العظيمة التي كان المراد أن نكون نحن من نحمل شرف حملها إلى الآخرين في مختلف بقاع الدنيا، وعندما فرطنا نحن من نسمي أنفسنا صفوة هذه الأمة، الزيدية، وعندما فرّطنا نحن من نسمي أنفسنا نحن عترة رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله)، نحن فرطنا في مسؤولية كبيرة، أتاحت الفرصة لليهود أن يتحركوا هم، وبمختلف الفئات الضالة والمضلة في هذه الدنيا، أن تتحرك هي فتمتلئ الدنيا فساداً، وظلماً، ويكون الباطل هو الذي يسود، ويكون الفساد هو الذي يحكم، وهو الذي ينتشر، وهو الذي يمتلك القوة، ويمتلك الهيمنة» [25].

ويؤكد أن على الزيدية النهوض بالإسلام، بقوله: «إن واجبنا نحن الزيدية أن نعمل في سبيل الله، وأن ننهض بالإسلام، وإن كان الأمريكيون هناك، وأن نعمل على أن نكون نحن بدل أولئك، أوليس الأمريكيون الآن، والألمان، والفرنسيون، والبريطانيون هم المجاهدون في البحار؟ هم من يحملون السّلاح، ويتحركون في هذا العالم» ؟! [26].

وفي خضم دعوته للزيدية للقيام بالمسؤولية نحو أعداء الله وأعداء الإسلام وفي مقدمتهم اليهود باعتبارهم أشد الأعداء للعرب والمسلمين، وهم مسؤولين عما يحل بالمسلمين في كل مكان في العالم، لكن بإمكان المسلمين وفي مقدمتهم الزيدية مواجهتهم بكل الوسائل ثقافياً وفكرياً وعسكرياً وفي كل المجالات، بقوله: «نحن الزيدية علينا مسئولية كبيرة، ونستطيع أن نعمل الكثير ضد إسرائيل، ضد اليهود، وضد عملاء اليهود، وثقافة اليهود وإعلام اليهود، يستطيع الناس أن يعملوا الكثير» [27].

وفي ظل التوجه الأمريكي نحو اليمن الذي اشتدت الدعوة لاحتلاله بعد عام 2000، أكد السيد حسين، أهمية أن يكون للزيدية موقف عملي ضد الأمريكيين الذين بدأوا في التوجه نحو اليمن، بقوله: «عندما نتحدث في هذه الأيام أنه يجب علينا أن نرفع هذا [الشعار] وأنه يجب علينا نحن [الزيدية] في المقدمة: أن تتوحد كلمتنا، وأن يكون لنا موقف عملي، يرفض دخول الأمريكيين إلى اليمن، وموقف عملي في مواجهة اليهود والنصارى؛ فإن كل فرد من آل محمد، كل فرد ينتمي إلى رسول الله (صلوات الله عليه وعلى آله) يجب أن يكون في مقدمة المستجيبين سواء أكان عالماً أم جاهلاً، أكان تاجراً أم فلاحاً»[28].

ويؤكد السيد حسين على أهمية قيام الزيدية بالمسؤولية أكثر من غيرها من الطوائف الإسلامية الأخرى، بقوله: «تحدثنا في كلام سابق بأن المسؤولية على الزيدية تبدو أكبر من المسؤولية على أي طائفة أخرى؛ لأننا -في نفس الوقت- نقول: نحن أهل الحق، ونحن من بين أيدينا مبادئ الإسلام وقيمه بشكل صافٍ ونقي، لم نتعرض في تاريخنا إلى أن نحمل عقائد باطلة ندين لله بها، فنحن أهل الحق. إذاً فأنت أنت المسؤول الأول عن هذا الحق، أن تعلي كلمته، أن تعلي صوته، أن توسع دائرته في هذه الأرض» [29].

وفي ذات السياق يؤكد على أن الزيدية يجب أن تكون أكثر المسلمين وعياً واهتماماً بحكم معتقداتها المنسجمة مع القرآن الكريم؛ مستدلاً بقضية «الخلود في النار» الذي تعكسه المنهجية الزيدية دون سواها، بقوله: «الزيدية يجب أن يكونوا أكثر المسلمين اهتماماً، وأن يكونوا أول المسلمين انطلاقة في مواجهة أعداء الله، وأن يكونوا أكثر المسلمين وعياً إيمانياً؛ لأن معتقداتهم خطيرة جدًا عليهم، وليس شيئاً انتحلوه أو بحثوا عن التثقيل على أنفسهم؛ إنه منطق القرآن، إنه هو الذي هدد بالخلود في النار لمن يتجاوز حدوده حتى فيما يتعلق بقسمة المواريث ناهيك عن الأعمال الأخرى التي يترتب عليها إقامة الدين والحفاظ على الدين وعلى الأمة»[30].

ويؤكد أن تخلي الزيدية عن مسؤوليتها في مواجهة أعداء الله، يجعلها في موقف متناقض مع ما تدعيه، بقوله: «الزيدية لحد الآن، أليسوا هم الذين يدعون بأنهم على حق، وأنهم الطائفة المحقة؟. إذا وقفوا مهزومين في نفسياتهم، إذا وقفوا

ساكتين عن أن يكون لهم موقف ضد أعداء الله، أي موقف يكون باستطاعتهم أن يعملوه فإنهم من يشهدون على أنفسهم بأن ادعاءهم أنهم على الحق ادعاء غير صحيح»[31].

وفي الأخير يؤكد السيد حسين أن الزيدية إذا كانت جديرة بتحمل المسؤولية ضد أعداء الله من اليهود والقوى المتحالفة معهم، فستكون الغلبة لهم، بحكم تمسكهم بالإمام علي بن أبي طالب «كرم الله وجهه»، الذي يمثل الفاروق بين الحق والباطل، ولعل الواقع الراهن يشهد بذلك من خلال ما نشاهده من نصر وتمكين وغلبة في المواجهة لحزب الله والقوى المتخندقة معه في محور المقاومة ضد اليهود وأعوانهم، بقوله: « إذاً فالشيعة وخاصة الزيدية هم فعلاً من يكونون جديرون بأن يكونوا هم حزب الله الغالبون، إن وثقوا بالله وعززوا ولاءهم لله ولرسوله وللإمام علي» [32].

الدولة الزيدية..جذور تاريخية وتجليات معاصرة

حكمت الدولة الزيدية أجزاء واسعة من اليمن وصل في بعض المراحل إلى مكة وعمان، وقد استمر حكمها أكثر من ألف عام، مرّت خلالها بثلاث مراحل رئيسة، هي :

المرحلة الأولى: وهي المرحلة التي بدأها الإمام الهادي يحي بن الحسين بتأسيس أول دولة زيدية مستقلة في اليمن، وخلفه ولداه «محمد بن يحيى» الملقب بالمرتضى، و«أحمد بن يحيى» الملقب بالناصر، وقد أكملا طريق والدهما، حيث شهد اليمن في هذه المرحلة ظهور أئمة وشخصيات وحركات فكرية عديدة كان لها تأثيرها على المذهب الزيدي وحولت اليمن إلى مركز أساسي للزيديين.

المرحلة الثانية: **(من القرن الخامس إلى القرن العاشر الهجري)**

بدأت هذه المرحلة عقب فترة من الصراعات الداخلية كادت أن تقضي على الدولة الزيدية، وقد عمل أحد أحفاد الإمام الهادي المعروف بالمتوكل على الله «أحمد بن سليمان» على قيادة حراكٍ زيدي تمكن من خلاله في النهاية من توسعة مناطق الدولة الزيدية في شمال اليمن، وتقلَّد الإمامة والقيادة السياسية والدينية

للزيديين، وقد حاول من خلال مؤلفاته وحراكه على الأرض، محاربة التيارات الفكرية المنحرفة التي ظهرت، أمثال «المطّرفية» والتي كانت انتشرت على مدى قرن من الزمن. كما يعتبر الإمام «عبد الله بن حمزة» المعروف بالمنصور بالله من أشهر أئمة هذه المرحلة، وقد استمر في محاربة تيار «المطرفية» وقضى عليها.

توالى حكم الأئمة الزيدية على اليمن بعد المتوكل والمنصور واستمروا في قيادتهم البلاد حتى دخول العثمانيين البلاد وإسقاطهم لحكم الأئمة وتوليهم زمام الأمور.

المرحلة الثالثة: (من القرن الحادي عشر هجري إلى 1962م)

بعد مرحلة استمرت لحوالي قرن من الاحتلال العثماني لليمن والتضييق على الأئمة الزيدية، تمكن المنصور بالله «القاسم بن محمد بن علي» أحد أحفاد الإمام الهادي تولي قيادة المواجهة مع العثمانيين مؤسساً الدولة الزيدية في نسختها الثالثة عام 1006هـ، حيث استطاع في النهاية تخليص اليمن من الاحتلال العثماني.

عُرف المنصور بالله بصفته مجدد المذهب الزيدي في عصره؛ وذلك لما اشتهر به من العلم والسعي لإحياء المدرسة الزيدية، حيث انعكس سعيه هذا على الأرض من خلال كثرة مؤلفاته ودوره في مجابهة العثمانيين، ولهذا السبب كان معظم الأئمة الذين تلوه من أبنائه وأحفاده.

بعد وفاة المنصور بالله توالى أبناؤه وأحفاده إمامة الزيدية، وأبرزهم ولداه المؤيد بالله محمد بن القاسم والمتوكل واللذان أكملا مسيرة والدهما في مواجهة الأتراك وتوحيد اليمن. وبعد وفاتهما تسلم الإمامة مجموعة من الأئمة كان أغلبهم من نسل المنصور بالله القاسم بن محمد، إلا أن الدولة الزيدية عانت من الضعف نتيجة الصراعات الداخلية، فعاد العثمانيون إلى احتلال البلاد مرة ثانية ومن ثمة خروجهم منها عقب الحرب العالمية الأولى واحتلال البريطانيين للشطر الجنوبي من اليمن.

استمرت الدولة الزيدية في اليمن بتولي الأمام المنصور «محمد بن يحيى» وهو أحد أحفاد القاسم، لكن أخذت شكلاً ملكياً وراثياً حتى عام 1382هـ-1962م، عندما توفي الإمام «أحمد حميد الدين» وخلفه ابنه محمد المعروف بالبدر، إذ قام مجموعة من الضباط وبدعم من «جمال عبد الناصر» بالانقلاب عليه وإسقاط حكومة الأئمة في اليمن وإعلانهم الجمهورية، وتلاها إبعاد الزيدية عن القوة

السياسية، لكنها حافظت على فكرها ورسالتها الوسطية بحكم قربها من مختلف الفرق الإسلامية، وكذلك حافظت على رسالتها الوطنية في بناء مستقبل اليمن «لأن الفكر الزيدي يتمتع بمناعة فقهية سياسية تشريعية، رغم ما لحق بمؤسسته الإمامية من هزيمة سياسية عسكرية بعد قيام ثورة أيلول 1962م/1382هـ»[33].

وخلال هذه المرحلة الطويلة، حكم الدولة الزيدية أكثر من 60 إماماً تعاقبوا على حكم اليمن منذ تأسيسها على يد الإمام الهادي 284هـ-1382هـ. وقد اعتمدت الدولة الزيدية على إرث فكري قلّ أن تجد له نظيراً، وقد تجلى ذلك في الفكر الذي حافظ على نقاوته من خلال استمرار باب الاجتهاد وتحريم التقليد والنظر إلى سعة مدارك الإنسان من خلال العقل الذي كرم الله الإنسان به ووضعه المذهب الزيدي في سلم أولويات الأدلة، وقبل النص القرآني المقدّس؛ لما للعقل من أهمية إن أحسن الإنسان النظر وأطال الفكر في ملكوت الله وأحكامه.

وكما أسهمت الموسوعات الزيدية في إثراء صفحاتها بآراء وأقوال المخالف في المذهب؛ قدّمت الدولة الزيدية في الحكم طيلة تاريخيها نموذجاً فريداً في التعايش، بل رعته وأسهمت في وجوده وضمان بقائه والمحافظة عليه، في صورة من أنصع صور التعايش بين المذاهب الإسلامية.

حيث أن الدولة الزيدية لم تفرض المذهب الزيدي الرسمي للدولة على رعاياها، بل حافظت على الوجود الشافعي الكبير في «تهامة» و»اليمن الأسفل»، واعتبرته يسهم في الإثراء المعرفي والتلاقح الفقهي والفكري بين المذهبين فضلاً عن إيجابية التنوع في حد ذاته، ومن يستقرئ تاريخ الدولة الزيدية في اليمن يجد أن أئمة الزيدية لم يفرضوا على بقية رعاياهم المذهب الزيدي، بل كانوا يؤكدون على احترام خصوصية المذهب الشافعي، وكان أبلغها وضوحاً تعيين حكام في المناطق الشافعية من أتباع الشافعية.

وقد لاحظ ذلك المعاون السياسي للمندوب السامي البريطاني في عدن «الكولونيل هارلود جيكوب» خلال زيارته لليمن سنة (1338هـ- 1919م) بهدف لقاء الإمام «يحيى حميد الدين» بقوله: «وكانت عادت الإمام دوماً وما زالت هي تعيين الحكام على الأقاليم الشافعية من الأشخاص الشوافع؛ تحاشياً من إحراج الأحاسيس الدينية والمشاعر المذهبية عند أبناء هذه الطائفة»، وقد استمر ذلك في

عهد خلفه الإمام «أحمد بن يحيى حميد الدين»، حيث «استقر بمدينة تعز قرابة 25 سنة، لم يؤذن فيها بـ«حي على خير العمل» وهو جزء من الأذان عند الزيدية إلّا في مسجده الخاص، في الوقت الذي احتفظت فيه المدينة بشخصيتها الاجتماعية والعلمية والمذهبية»[34].

ورغم هذا الموروث الهائل في الإثراء المعرفي والتنوع الفكري، إلا أن تطبيق الفكرة الزيدية في أهم قضايا الأصول لدى الزيدية وهي قضية ولاية الأمة (الإمامة)، قد انتكست بتصرفات بعيدة عن أدنى درجات الرشد السياسي؛ وذلك لأن الفكرة أتاحت الفرصة للمتسلقين والطامعين في السلطة إلى استغلالها، الأمر الذي أفرز كثيراً من عمليات التنازع والشقاق في بعض من مراحل الدولة الزيدية.

وهذا ما جعل الشهيد الدكتور «عبد الكريم جدبان» أحد علماء الزيدية وأبرز محققي التراث الزيدي يعبر عن ذلك بقوله: «لأنه لا يوجد نص دستوري في المذهب الزيدي ينظم عملية انتقال السلطة من شخص لآخر، دون شيوع الخلاف الذي يؤدي عادة إلى سفك الدماء والفتن وتهديد مبدأ النظرية عموماً، كان التاريخ الزيدي مليئاً بالمآسي والأحداث الدامية والخراب والدمار؛ لأنه كما أسلفنا لا يوجد نص دستوري ينظم العملية، بل تُرك الأمر هملا، مما فتح الباب أمام الطامعين والطامحين والانتهازيين مفتوحاً على مصراعيه. فكل من وجد في نفسه قدرة للاستيلاء على كرسي السلطة تقدم إليه، ولو لم يكن يملك من شروط الإمامة إلا الذكورة والانتساب إلى علي وفاطمة عليهما السلام، أو كان يرى أنه الأفضل والأكمل من الإمام الذي سبقه، وإن كان السابق له على أكمل وجه بالنسبة لشروط النظرية الهادوية في الحكم»[35].

غير أن هذا الاستغلال السياسي نحو الاستئثار بالسلطة، لم يكن حصراً على طائفة أو مذهب، منذُ بدأه «معاوية بن أبي سفيان» الذي حوّل الخلافة الإسلامية نحو الملك العضوض، وهذا ما جعل الشهرستاني يقول: «ما سُلّ سيفٌ في الإسلام على قاعدة دينية مثل ما سُل على الامامة في كل زمان»[36].

وقد كانت الزيدية أكثر تغليظاً في الحد من الاستغلال السياسي للنظريات وتطويعها من خلال الشروط الزيدية للإمامة والتي بلغت 14 شرطاً، والتي قلّ أن تُوجد إلا في القليل من الناس وذلك للحد من نزعة التطاول على إمارة الأمة

وولايتها، ومع هذا لم تحد تلك الشروط الكثيرة من عملية التنازع ومحاولات الاستئثار بالسلطة.

وفي العصر الحاضر -وبحكم تطورات الزمن وخاصة بعد مرحلة الاستقلال في خمسينيات وستينيات القرن الماضي-، ظهرت الأنظمة الثورية في كثير من دول العالم العربي والإسلامي ومنها اليمن، حيث تبنّت معظم الدول أنظمة حديثة تتناسب وروح العصر بشقيها الشرقي والغربي، فتبنّت الكثير من الدول الديمقراطية الغربية وأخرى تبنّت الثورية الاشتراكية.

وفي اليمن تم تبني النظامين في الشطرين الشمالي والجنوبي، فبعد ثورة 1962م، تبنى اليمن الشمالي النظام الجمهوري، وقد شارك في الدعوة إليه وتثبيته الكثير من علماء الزيدية وفي مقدمتهم آل الوزير، وغيرهم من العلماء ومثقفي الزيدية، وقد ارتفع الصوت الزيدي ضد نظام حكم الأئمة من بيت «حميد الدين»، وخاصة عندما جنحت الإمامة نحو التوريث الذي ترفضه النظرية الزيدية، بدءًا مِن تولي الإمام يحيى خلفاً لأبيه المنصور محمد، وقد ازدادت معارضته بتولي الإمام أحمد ولاية العهد في عهد أبيه إلى تولي ولده «محمد البدر» أمر ولاية العهد؛ لينضم الكثير من رجالات الزيدية إلى الصف الداعي إلى الثورة والجمهورية، وفي مقدمته تيار الأحرار، ومن أجل ذلك قدّموا الكثير من التضحيات في سبيل تحقيق النظام الجمهوري[37].

غير أن التجربة الجمهورية المريرة التي حلّت باليمن وحولته إلى ميدان للصراعات الإقليمية جعل الكثير من علماء الزيدية يفضلون الصّمت والانكفاء على التدريس والابتعاد عن الشأن السياسي؛ ما جعل خصومهم يتهمونهم بمناوأة النظام الجمهوري، وفي مقابل ذلك ازداد حضور التيار المعادي للزيدية في سلّم الهرم السياسي؛ نتيجة تغول الدور السعودي في اليمن.

عقب قيام الوحدة، وظهور التعددية السياسية جعل الزيدية تفصح عن رأيها السياسي بشكل واضح وصريح، فكان مخيّم الفتح الذي نظّمته في صعدة وأسفرت نتائجه في تأسيس «حزب الحق» المحطة الأولى في الاعتراف بالواقع السياسي وأهلية النظام الجمهوري في حكم الأمة ورعاية شؤونها[38].

ومعلوم أن البيان تم توقيعه من قبل معظم علماء الزيدية من صنعاء وصعدة

وغيرها من المناطق اليمنية، من خلال التوقيع على الأهداف السياسية لـ«حزب الحق» التي تنص على المحافظة على النظام الجمهوري نوعاً للحكم، فضلاً عن أن «حزب الحق» يعد أبرز الأجنحة السياسية للطائفة الزيدية.

إن هذا التأكيد الواضح من قبل أبرز علماء الزيدية ومجتهديها، لا يمثل انعطافة في الفكر الزيدي ولا تجاوباً مع روح العصر ولا حتى يمكن وصفه بمرونة فكرية، بقدر ما هو مواصلة لإثراء الفكر الزيدي وإنعاش للموروث الرائد القابل للتجديد والرافض للتقليد، لما يتيحه هذا الفكر للمجتهد من قدرة على النظر واستنباط الأحكام الشرعية.

بيد أنّ هذا البيان إضافة إلى عشرات البيانات التوضيحية والخطوات العملية لم توقف ادعاءات الخصوم تجاه الزيدية كفكر وطائفة ومذهب، وهذا ما دفع قائد أنصار الله السيد «عبد الملك بدر الدين الحوثي»، على تأكيده المستمر على ضمان وسلامة النظام الجمهوري في أكثر من خطاب.

زيدية اليوم.. موروث دولة وتحديات معاصرة

عانت الزيدية في اليمن وعلى مدى الخمسين عاماً الماضية من التهميش والإهمال، وكانت محافظاتهم وخصوصاً صعدة المعقل الأساسي للزيدية في اليمن، تعاني من عدم اكتراث الدولة بها، وعانوا أيضاً من التضييق على حياتهم الدينية، حيث عملت السلطة المركزية بدعم من السعودية والتيارات الوهابية التكفيرية على سلبهم مساجدهم ومنع طباعة كتبهم والحيلولة دون انتشارها، وصولاً إلى نشر فتاوى تكفيرهم في وسائل الإعلام، فعاشوا الغربة في بلادهم، وتنامى لديهم إحساس المظلومية.

وفي عام 1986 قام مجموعة من العلماء الزيدية، أبرزهم القاضي «صلاح بن أحمد فليتة» بالتعاون مع العلاّمة «مجد الدين المؤيدي» والعلاّمة «بدر الدين الحوثي» بإنشاء «اتحاد الشباب» لتدريس أصول المذهب الزيدي، وبعد إعلان الوحدة بين شطري اليمن الجنوبي والشمالي عام 1990م تحوّل «اتحاد الشباب» إلى «حزب الحق»- مستغلين الهامش الديمقراطي الذي نشأ عقب قيام الوحدة-

حاملا مشروعاً سياسياً، ويرى مؤسسوه أنه ممثلاً للطائفة الزيدية في اليمن.

لكن الحلم الديمقراطي الذي تطلع إليه اليمنيون بنشوء التعددية السياسية؛ ما لبث أن تبخّر عقب حرب صيف 1994م، ليدخل اليمن مرحلة جديدة من الديكتاتورية المتسلطة من خلال حكم الحزب الواحد، المؤيد بالقوى المتحالفة معه في السلطة، استمرت معها المواقف السلبية تجاه الزيدية.

أنصار الله.. عودة للجذور وتطلع للنهوض

عقب فشل مشروع التعددية السياسية بعد حرب 94، وما أفرزته من تعميق للتحالف بين «المؤتمر الشعبي» و«حزب الإصلاح»، وما أنتجته تلك المرحلة من قمع وتضييق للحريات. توجهت الزيدية نحو العمل الفكري والثقافي، للحيلولة دون اندثار الفكر الزيدي في ظل استمرار الهجمة عليه، وذلك من خلال تأسيس منتدى «الشباب المؤمن»، وبالرغم من أن المنتدى كان عبارة عن مشروع ثقافي، إلا أن الزيدية عبرّت من خلاله عن رفضها استمرار التوجه السلبي تجاهها ورعايته من قبل السلطة وأجهزتها التنفيذية.

لكن تلك المرحلة من التضييق على الزيدية لم تنتهِ، بل استمرت وتيرتها وبدا أن نظام «صالح» غير معني برعاية التنوع الفكري والمذهبي على أساس المساواة والانتماء الوطني.

وفي ظل تسارع الأحداث الدولية مع وصول المحافظين الجدد إلى البيت الأبيض حاملين مشروع القرن الأمريكي الجديد وتنفيذه ولو بالقوة العسكرية، تتابعت الأحداث في المنطقة ومنها اليمن لخدمة المشروع الأمريكي الجديد.

وانطلاقاً من أفكار المذهب الزيدي، التي تحمل في طياتها مبادئ الثورة ومواجهة الظلم، وفي ظل التوجه الأمريكي نحو اليمن، وتنفيذ النظام الحاكم للتوجيهات الأمريكية، عقب حادث «المدمرة كول» في 12 أكتوبر 2000م؛ أطلق السيد حسين بدر الدين الحوثي، -مدعوماً من والده العلامة «بدر الدين الحوثي» والذي يعتبر أبرز المرجعيات الزيدية-، البذرة الأولى لمشروع أنصار الله والعودة للجذور الزيدية.

وقد تجلى ذلك من خلال الصرخة: - «الله أكبر.. الموت لأمريكا.. الموت

لإسرائيل.. اللعنة على اليهود..النصر للإسلام»- في وجه أمريكا، التي رأى الحوثي: أنها بدأت في تنفيذ مشروعها للسيطرة على العالم الإسلامي منذ احتلال «أفغانستان» وسعيها لاحتلال معظم الأماكن الاستراتيجية فيه، ومنها اليمن الذي يحتل بموقعه جزءًا مهماً في الاستراتيجية الأمريكية.

وقد اعتبر هذا الشعار شعاراً للحركة، وكان أتباعها يرددونه بعد كل خُطبة جُمعة أو أي مناسبة أخرى، وقامت السلطة؛ تلبية للأوامر الأمريكية بمنع أتباع الحركة من ترديد شعارهم في مساجد صنعاء وصعدة، وقد اعتقل منهم المئات وزجّ بهم في سجون الأمن السياسي «المخابرات»، ومما لا شك فيه أن الحركة نالت النصيب الأكبر من حقد أمريكا وعداوتها، حيث تجلى ذلك من خلال الدفع بنظام صالح إلى شنّ الحرب للقضاء عليها منتصف يونيو 2004م، عقب عودة صالح من المشاركة في «قمة جورجيا».

أدّت الحرب إلى استشهاد قائد الحركة «حسين بدر الدين الحوثي»، وفتحت الباب لسلسلة من الحروب، فشلت جميعها في القضاء على الحركة، بل انعكست نتائجها في زيادة أنصارها لاسيما بعد الحرب السادسة التي شاركت فيها السعودية بشكل مباشر.

وعقب تلك الحرب، أصبح اسم «أنصار الله» هو الاسم الرسمي للحركة، وقد ملأت الفراغ السياسي المعارض لصوت السلطة التي افتقدت لمعارضة حقيقة بعد انعتاق الأحزاب السياسية وغياب تأثيرها في الساحة، فتحولت صعدة مهد الحركة الأول إلى قبلة للوفود المعبرة عن معارضتها للوضع القائم، وكان للقائد الشاب الجديد للحركة وتميزه بمزيج من الوعي والقوة والروح القيادية، أثره الكبير في توسع الحركة وزيادة أنصارها لتتخطى معظم المجتمع الزيدي في (صعدة وعمران وصنعاء وذمار) إلى المحافظات الأخرى التي عُرفت بانتمائها للمذهب الشافعي في (الحديدة واليمن الأسفل).

شاركت الحركة في ثورة الشباب السلمية، واعتبرتها السبيل الوحيد للتغيير، وبعد انقسام النظام على نفسه وتحول الثورة إلى أزمة سياسية بين السلطة والمعارضة استمر أنصارها في ساحات الثورة، وعارضت التوجه نحو الحل السياسي الذي لا يلبي طموحات اليمنيين في التغيير وهو ما تم من خلال المبادرة الخليجية.

لم تعترف الحركة بالمبادرة الخليجية ولم ترفضها، لكنها شاركت في «مؤتمر الحوار الوطني» الذي انطلق في 18مارس 2012، باعتبار الحوار وسيلة للحلول والوصول بالبلد إلى الاستقلال وضمان وحدته واستقراره وتحقيق تطلعات الجماهير الثورية.

لكن الحركة قالت: إنها وجدت الحوار الوطني محكوم بالتدخلات الخارجية، وأن وجود القوى المتحاورة فيه لا يعني سوى بروفات شكلية لا تعكس إرادة الجماهير، ولتأكيد مصداقيتها استمرت الحركة في المشاركة في الحوار رغم اغتيال عضوين بارزين من أعضائها المشاركين في الحوار، إضافة إلى وجود الدعوات الصريحة لاجتثاثها-من قِبل أعضاء في الحوار مناوئين لها-على خلفية «حرب دمّاج» و«كتاف» وحصار «محافظة صعدة» المهد الأول للحركة.

وقد انتهى الحوار الوطني دون التوصل إلى حل للقضايا الجوهرية التي وضع لأجلها، وهو ما جعل الحركة تقود الجماهير إلى تصحيح مسار الثورة الشعبية، خاصة بعد أن اتخذت «حكومة الوفاق» قراراً بزيادة أسعار المشتقات النفطية، واستمرارها في تنفيذ المرحلة الانتقالية وفق تشكيلتها الحزبية وعجزها في وقف الاختلالات الأمنية وصمتها أمام انتهاك السيادة الوطنية.

وقد نجحت الحركة في تحقيق أهداف الثورة الشعبية من خلال: إسقاط الحكومة، وإصلاح الوضع السعري للمشتقات النفطية، وإيجاد صيغة بديلة لاستكمال المرحلة الانتقالية من خلال «اتفاق السلم والشراكة» الذي تم توقيعه برعاية أممية عشية نجاح الثورة الشعبية في 21 سبتمبر 2014، والذي تم الترحيب به من قبل القوى الدولية والإقليمية.

وقد انعكس نجاح «الثورة الشعبية» في تحسن الوضع الأمني في العاصمة وبعض المدن الرئيسة، وتم تشكيل حكومة كفاءات وطنية، شملت القوى التي تم تهميشها سابقاً، وقد آثرت الحركة عدم المشاركة في الحكومة، ومنحت نصيبها لحلفائها في الحراك؛ متفرغة لمراقبة تحقيق أهداف الثورة التي أدركت أن تحقيقها صعب المنال في ظل وجود رغبة إقليمية وتواطؤ داخلي لا لتحقيق أهداف الثورة التي حملت رايتها، بل لإزاحتها من المشهد السياسي.

أدركت الحركة عجز «الرئيس هادي» في تنفيذ بنود «اتفاق السلم والشراكة»

وتماهي أعضاء الحكومة والقوى المؤيدة له مع تلك الرغبة؛ وهو ما دفع بالحركة إلى توقيف مدير مكتبه؛ لوقف تمرير مشروع الأقاليم الذي لم يتم الموافقة عليه في «مؤتمر الحوار الوطني».

أدرك هادي استحالة تنفيذ ما تعهد بتنفيذه، ونال به مباركة القوى الدولية وتأييدها لبقائه، فسارع لتقديم استقالته ودفع بالحكومة إلى ذات الخطوة؛ بهدف الضغط على الحركة والقوى الوطنية المتحالفة معها من خلال إدخال البلد في متاهة الفراغ الدستوري.

ورغم أن خطوته التي أصرّ عليها لم تحصل على موافقة «مجلس النواب» والذي لم يجتمع لمناقشتها أصلاً، لكن الحركة وجدت نفسها منفتحة على حل للأزمة من خلال الحوار الذي رعته الأمم المتحدة عبر مبعوثها «جمال بن عمر» في «موفمبيك»، إلا إنّ خروج هادي الغامض إلى «عدن» خلط الأوراق وأوقف الحوار، ما حدا بالحركة إلى اتخاذ خطوة أكثر جرأة لملء الفراغ عبر «الإعلان الدستوري» في السابع من فبراير 2015.

وقد كشفت تلك الخطوات لهادي وفريقه السياسي الذي توسع وازداد قوة؛ نتيجة الصلاحيات التي حصل عليها هادي منذُ تعيينه رئيسًا للمرحلة الانتقالية، إلى تشكيل اللجان التحضيرية للحوار، مروراً بتوزيع الحصص على الأعضاء، والذي نال منه كتلة كبيرة عُرفت بفريق الرئيس، إضافة لاتخاذ خطوات بعيدة عن التوافق وصولاً إلى تقاعسه عما تمّ الاتفاق عليه في «السلم والشراكة»؛ عن دور خارجي واسع النطاق على حساب المصلحة الوطنية لليمنيين والذي عززته قرارات مجلس الأمن والتي وصلت إلى وضع اليمن تحت البند السابع.

وكانت قصة مغادرته صنعاء، ووصوله المفاجئ إلى عدن، وتراجعه عن خطوة الاستقالة، وعدم اعترافه بـ«اتفاق السلم والشراكة» الذي سبق ورعاه وصادق عليه، هي التعبير الأكثر وضوحاً عن مدى التأثير الخارجي الكبير.

وقد تعزز التدخل الخارجي بالتأييد اللاّمحدود من قبل القوى الدولية الكبرى والقوى الإقليمية لخطوات هادي، الأمر الذي انعكس في تسارع الأحداث الأمنية مع وصول وزير دفاعه إلى عدن وقيادته لوقف تقدم «الجيش واللجان الشعبية» إلى الجنوب، والذي فشل رغم تحالفه مع القوى التكفيرية وأدّى إلى وقوعه في

الأسر، ونجاح «الجيش واللجان الشعبية» في الوصول إلى عدن التي اعتبرها هادي العاصمة المؤقتة؛ ما دفع القوى المؤيدة له إلى التدخل المباشر في 26 من مارس 2015، عبر «عاصفة الحزم» بقيادة سعودية وتأييد عربي ومشاركة أمريكية.

الخاتمة:

وفي الأخير، لقد قدّمت الزيدية كفكرٍ ومذهبٍ الكثير من المبادئ الإنسانية والمعارف الإسلامية، حيث أسهم الفكر والمذهب الزيدي في غرس قيم الوسطية والاعتدال بين مختلف المذاهب والفرق الإسلامية، كما قدّمت الزيدية في اليمن كدولة تجربة فريدة في الحكم تمثل في حفظ استقلال اليمن والحفاظ على وحدته التاريخية، غير أن نموذج الحكم الذي أسّسته هذه الدولة نجح أحياناً وأخفق أحيانًا أخرى؛ نتيجة لتجاوز النظرية الزيدية في الحكم واستغلالها من قبل الطامعين في السلطة.

لكن ورغم ذلك استمرت الدولة الزيدية لأكثر من أحد عشر قرناً من الزمن رغم المؤثرات الخارجية والخلافات الداخلية، وذلك نتيجة لنظارة الفكر وقيم المذهب، والتضحيات الكبيرة التي قدّمها رموز هذا الفكر وأئمة هذا المذهب، الذين قادوا الدولة بالعلم والفكر وحسن السياسة، وآخرين ناضلوا في الدفاع عن القيم العقلية وأثروا التراث الإسلامي بآرائهم واجتهاداتهم وما سطروه في نفائس كتبهم من مسائل واجتهادات علمية، لا نظير لها في التراث الإسلامي.

وقد كانت أنصع الصور لهذه الدولة وأكثرها بريقاً بجانب الريادة في العلم والتحصيل والمعرفة، تتجلى في التعايش المذهبي بين الزيدية والشافعية الذي لم يخدشه تسلط أو تمسك برأي من قبل أحد من الأئمة أو الحكام طيلة أحد عشر قرناً من الزمن، وهذا يدل على التسامح والتعايش الحسن، ويؤكد على ريادة في الفكر وعبقرية في الأداء من قبل الراعي لهذا التعايش، لذلك ينبغي قراءته والاستفادة منه في الوقت الراهن.

إن ما يقدمه «أنصار الله» في الوقت الراهن من عودة للجذور الزيدية، وما نجحوا فيه من خطوات ثورية وحصافة في التعامل رغم شدة المؤامرات وجور

الواقع الذي فرضه العدوان الخارجي على البلد جدير بمواصلته واستمراره.

لقد كانت تجربة النضال الطويلة لأنصار الله من الثورة إلى السلطة قفزة نوعية لا يمكن تجاوزها دون نظر عميق في خلفية الانتماء وطبيعة المشروع؛ لذا ينبغي المحافظة عليها وترشيدها بخطوات عملية تسهم في تحقيق تطلعات الجماهير وتحقيق أهداف ثورة الواحد والعشرين من سبتمبر، وقد كانت تجربة «اتفاق السلم والشراكة الوطنية» نموذج فريد في عالم الثورات المعاصرة، إذ لأول مرة تتسامح ثورة مع جلادي رجالها، فضلاً عما قدمته «اللجنة الثورية» من حسن أداء في الإدارة؛ وهو ما أسهم في المحافظة على مؤسسات الدولة، وعزز الصمود الوطني لأكثر من عامين، نالت من خلاله شرف المسؤولية وثقة الشعب، كما أسهمت في خيبة العدو.

وقد كان للمشاركة السياسية مع «المؤتمر الشعبي العام» في إدارة الدولة أثر إيجابي في تعميق التجربة السياسية لأنصار الله، وتأكيدًا منهم أن حسابات السلطة ليست واردة في قاموسهم بقدر ما يهمهم المحافظة على سيادة البلد واستقلاله وكرامة شعبه، وكان له أثره في تعزيز الصمود الوطني؛ لما مثلته هذه الخطوة من ضربة سياسية للعدو أصابته في مقتل وخسر ورقة كان يُمنّي نفسه في بقاء الأنصار في عزلتهم، وخلق حاجز بينهم وبين الشعب بمكوناته السياسية.

وكان تسامحهم مع الشرفاء في المؤتمر -وحصر الخيانة في أفراد لا في الحزب الذي ينتمون إليه؛ عقب أحداث ديسمبر 2017م- أكثر وضوحاً وتأكيداً على تسامحهم، باعتبار الوطن هو المجال المقدس الذي لا يمكن التفريط به والقفز على مصالحه.

إن هذه النجاحات في الشراكة الوطنية، وحسن إدارة الدولة رغم شحة الموارد واستمرار بناء المؤسسات وخاصة العسكرية والأمنية، عكست إرادة وطنية وقدرة في الأداء أبهرت العدو قبل الصديق.

هذه التجربة المعاصرة التي يقدمها الأنصار توحي بنهضة زيدية لن تقتصر على الموروث الفكري المتميز للزيدية فحسب، بل تشمل القيم الوطنية وإيمان عميق بعناصر المجابهة لدى محور المقاومة والذي أضاف انضمام اليمن إليه دفعة معنوية وقوة عسكرية هائلة.

ورغم هذه التجربة التاريخية للدولة الزيدية والحضور الزيدي الصاعد منذ تسعينيات القرن الماضي، وصولاً إلى تجربة «أنصار الله» تحت قيادة المؤسس «حسين بدر الدين الحوثي»، وقيادة خلفه «عبد الملك بدر الدين الحوثي»، إلا أننا نجد معارضة لزعامته للطائفة الزيدية من داخل الوسط الزيدي، المتمثلة بالسيد «عبد العظيم الحوثي»، و«محمد عبد الله عوض المؤيدي».

ولا شك أن هذه المعارضة محدودة، إضافة إلى كونها ذات توجهات راديكالية متشددة، وهي بذلك تُعتبر خارج نطاق التأثير الكبير على مشروع أنصار الله؛ لأنها لا تتناسب في طرحها مع روح العصر وما يقدمه أنصار الله في توجههم الوطني في الدفاع عن الوطن والحفاظ على استقلاله.

حيث لا تزال الزعامتين لعبد العظيم وعوض أسيرة في توجهها الفكري الزيدي المنغلق، الذي تجاوزته الزيدية منذ تسعينيات القرن الماضي، وأهمها مسألة الإمامة، إذ أنهما لم يصرحّا بقبول الحكم الجمهوري، رغم معرفتهما ببيان معظم علماء الزيدية والذي أشرنا إليه في فقرات هذه الورقة، وبهذا التوجه يبدو أن تأثيرها سيظل محدودًا، طالما حافظت هذه القيادات على توجهها المنغلق والمحكوم بذهنية المذهب في جناحه المتشدد.

ويبدو أن موقفهما المتعلق بالإمامة والنظام الجمهوري يوحي بتوجههما المنغلق، حيث لا تزال القيادتين «عبد العظيم» و«عوض» تعتقدان بالنظرية الزيدية التي تم تجاوزها من قبل معظم علماء الزيدية مطلع تسعينيات القرن الماضي. في حين تؤكد قيادة أنصار الله بقيادة السيد «عبد الملك الحوثي» حرصها على النظام الجمهوري الذي ارتضاه الشعب كخيار له في الحكم.

ويبدو أن هذا الخلاف انسياق لتتابع الخلاف الذي كان يتم بين الزعامات الهاشمية على منصب الإمامة، أو ربما كان لالتفاف الجماهير اليمنية -وفي مقدمتها الزيدية- تحت قيادة عبد الملك الحوثي، أثر سلبيّ في نفسيهما، ويجدان أنهما أحق بتلك الزعامة.

وقد لعبت وسائل إعلام التحالف دوراً سلبياً في تأجيج الخلاف، حيث ذكرت حصول مناوشات كبيرة ومتعددة بين أنصارهما وقوات الأمن واللجان الشعبية التي تتبع قيادة أنصار الله، ولا شك أن التحالف يسعى لتأجيج الخلاف داخل

البيت الزيدي؛ وذلك بغرض كسر إرادة الصمود لدى الشعب اليمني الذي تُعتبر الزيدية بقيادة أنصار الله أكبر الرافعات الوطنية المواجهة للعدوان، وقد صرح «محمد بن سلمان» بذلك في إحدى مقابلاته التلفزيونية، حيث ذكر أنه يتوقع انشقاقات في صفوف «الحوثيين»، ويبدو أن هذا التصريح جاء بعد ما أوحى إليه مستشاروه باتخاذ هذه الخطوة في سبيل كسر إرادة اليمن بهدف الخروج- بأي وسيلة- من مستنقع اليمن الذي ورط بلده فيه، وخاصّة بعد فشل كل الوسائل العسكرية والاقتصادية.

وبعد هذا التصريح ركّزت وسائل الإعلام التابعة للتحالف على خلافات داخل الوسط الزيدي، وحصول انشقاقات بين من أسمتهم الحوثيين، وقد أصيبت هذه الخطوة بانتكاسة منذ بدأت القنوات السعودية في إشاعتها، خاصة عندما لم يحصل لها تأثير.

قائمة المراجع:

1 - أحمد محمد صبحي، الزيدية، دار النهضة العربية- بيروت، ط3، 1411هـ/1991م، ص51.

2 - انظر: ابن المرتضى، الإمام المهدي بالله أحمد بن يحيى، البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار، مراجعة: يحيى عبد الكريم شرف الدين (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1975م)، ج1، 40، 94، 95. ابن حمزة، الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة، مجموع الرسائل، تحقيق: عبد السلام الوجيه (عمّان: مؤسسة الإمام زيد بن علي الثقافية، 2002م)، ج2، القسم الأول، 352، 353. زيد الوزير الزيدية: علامات وأفكار. الخصائص الفكرية والمؤثرات الثقافية-مركز التراث والبحوث اليمني ttps://www.yemenhrc.com/single post/2016/ 1/ 9

3 - زيد الوزير، سبق ذكره، ابن حمزة، مجموع الرسائل، سبق ذكره، ج2، القسم الأول، 361.

4 - انظر: صبحي، سبق ذكره. 256 المقالح، عبد العزيز، قراءة في فكر الزيدية والمعتزلة، (بيروت: دار عودة، 1982م)، ص 21.

5 - المقالح، المرجع السابق، ص 20.

6 - برنارد هيكل، علماء أهل الحديث عند زيدية اليمن، مجلة المسار، العدد الخامس (1422هـ 2001-م) ص 32.

7 - الوزير، سبق ذكره، حول هذه المسألة يمكن النظر إلى: موسوعات الفقه الزيدي، كالبحر الزخار، وشرح الأزهار للإمام المهدي أحمد بن يحي المرتضى، وكتاب الانتصار لمذاهب علماء الأمصار للإمام يحي بن حمزة، تحقيق عبد الوهاب المؤيد وعلي أحمد مفضل، ورسائل العدل والتوحيد، دراسة وتحقيق: محمد عمارة (القاهرة: دار الهلال، 1971م)، جزأين، ويحتوي الكتاب على مجموعة رسائل للإمام الحسن البصري، والإمام القاسم بن إبراهيم الرّسي، والقاضي عبد الجبار بن أحمد، والشريف المرتضى، والإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين.

8 - صبحي، الزيدية، 73 - 74.

9 - المرجع السابق، 200.

10 - سورة الأحزاب: آية 33؛ وحول تخصيص الخمسة في هذه الآية بالتطهير فقد ورد على لسان أم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر الصديق، أنها قالت: خرج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) غداةً وعليه مرطٌ مرحل من شعر أسود، فجاء الحسن بن علي فأدخله، ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها، ثم جاء علي فأدخله، ثم قال: إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيراً (صحيح مسلم، ج8، جزء 15، ص 194).

11 - الهاروني، يحيى بن الحسين، الإفادة في تاريخ أئمة الزيدية، صنعاء ، دار الحكمة اليمانية، ط1، ١٩٩٦ص61.

12 - انظر: مقاتل الطالبيين، لأبي الفرج الأصفهاني، شرح وتحقيق أحمد صقر، مؤسسة الأعلمي، بيروت- لبنان/ التاريخ الإسلامي، أحمد محمد الهادي، التاريخ الإسلامي، مركز الشهداء، ط3، 1438هـ2017-م.

13 - محمد يحي سالم عزان، قراء في نظرية الإمامة عند الزيدية،
http://yahya-ben-zayd.blogspot.com/201410//blog-post.html

14 - المرجع السابق.

15 - عبد الله بن عبد الوهاب المجاهد الشماحي، اليمن الإنسان والحضارة، منشورات المدينة، بيروت-لبنان،1406هـ/1985م، ط3، 117.

16 - عبد الواحد حسن العمدي، الزيدية.. المشروع المغيب والفكر المستهدف، https://sawtshouraonline.com/index.php/component/k2/item/156

17 - المرجع السابق.

18 - «الزيدية باليمن» للعلامة محمد بن إسماعيل العمراني - ص12-11..

19 - المصدر السابق: ص14.

20 - عبد الواحد حسن العمدي الزيدية.. المشروع المغيب والفكر المستهدف، https://sawtshouraonline.com/index.php/component/k2/item/156

21 - ملزمة آيات من سورة آل عمران- سورة آل عمران ـ الدرس الأول- الفقرة رقم -84.

22 - تم استهداف جامع الإمام الهادي في 9 مايو2015، واستهداف مسجد ومرقد العلامة الصنعاني في 10 إبريل 2015.

23 - الخطاب الأول للسيد عبد الملك بن بدر الدين الحوثي في العدوان: https://www.youtube.com/watch?v=nouq9Exkrec

24 - آيات من سور المائدة، الدرس الرابع، الفقرة: 26.

25 - آيات من سورة المائدة- سورة المائدة ـ الدرس الرابع الفقرة: 26.

26 - ملزمة: خطورة المرحلة-الفقرة:53.

27 - يوم القدس العالمي-رقم الفقرة269-.

28 - مسؤولية أهل البيت عليهم السلام-رقم الفقرة- 42.

29 - آيات من سورة المائدة-سورة المائدة ـ الدرس الثالث-الفقرة:29.

30 - في ظلال دعاء مكارم الأخلاق ـ الدرس الثاني-الفقرة: 115.

31 - في ظلال دعاء مكارم الأخلاق ـ الدرس الثاني-الفقرة:143.

32 - آيات من سورة المائدة-سورة المائدة ـ الدرس الأول-الفقرة:172.

33 - أحمد محمد صبحي، الزيدية، دار النهضة العربية- بيروت، ط3، 1411هـ/1991م، ص51.

34 - انظر هارولد جاكوب، ملوك شبه الجزيرة العربية، ترجمة: أحمد المضواحي،

ط2 (بيروت: دار العودة، 1988م)، -261 زيد الوزير الزيدية: علامات وأفكار، سبق ذكره.

35 - عبد الكريم جدبان، من مقدمة تحقيق كتاب: مجموع رسائل الإمام الشهيد المهدي أحمد بن الحسين. ص 77.

36 - أبو الفتح، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستاني (ت548هـ)، صححه وعلق عليه أحمد فهيمي أحمد، دار الكتب العلمية، بيروت -لبنان، 1413هـ-1992م، ج1، ص24. الشهرستاني، ج1، ص24.

37 - لمعرفة تضحيات الزيدية في قيام ثورة 26سبتمبر، راجع مذكرات قادة الثورة اليمنية كالمشير عبد الله السلال، واللواء عبد الله جزيلان، وغيرهم ممن كتبوا وثائق الثورة اليمنية.

38 - كان من أبرز علماء الزيدية الذين شاركوا في تأسيس حزب الحق، العلامة مجد الدين المؤيدي، والعلامة أحمد محمد الشامي الذي شغل منصب الأمين العام للحزب.

منتدى مجال

سياسي - اجتماعي - استشاري